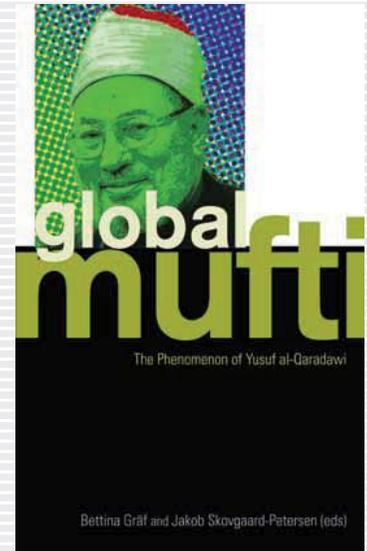


الإفتاء الكوني بين الدين والسلطة إضاءة علمية «عولمية القرضاوي»

الكتاب: المفتي الكوني: ظاهرة يوسف القرضاوي
تحرير: بيتينا غراف وجاكوب سكوفغارد بينتيرسن
الناشر: مطبوعات «جامعة كولومبيا»، نيويورك (2009)
(ISBN: 978-0-231-70070-2)

ما كان لـ«ظاهرة القرضاوي» أن تبقى في حدود العالمين الإسلامي والعربي، لكونها مصوغاً لتوأمي جمهوره العريض، وتتميز بطابع «عولمي»، وتصل عبر وسائل الإعلام علمه نحو يخطاب العالم انطلاقاً من وجهة نظره «الوسطية»، التي هيأت ليكون «مفتياً كونياً السمة». هذه مناقشة لمنهج الكتاب، وقراءة نقدية لتناول محريه الظاهرة.

صالح سليمان عبد العظيم *



تعاني المكتبة العربية فقراً كبيراً في رصد كينية تشكيل عقول الجماهير في المنطقة وتحليلها في ظل التحولات الإعلامية الهائلة التي طرأت في العقدين الماضيين، بما فيها «الإنترنت» والإمكانات الجديدة المصاحبة لها. وبرغم أن السلطة في العالم العربي ما زالت تتأزم استقلاليتها وسائل الإعلام بقدر متفاوت من النجاح، فإن هذه الوسائل قد نجحت في فرض متغيرات جديدة في ضوء تشعبها ومساحة تأثيرها. ففي مرحلة ما بعد الاستقلال استأثرت الدولة بوسائل الإعلام المختلفة من قنوات تلفزيونية محدودة، وبرامج إذاعية عديدة، وفرضت سيطرتها على الأنشطة والبرامج كافة، بما في ذلك الدينية منها. فقد كان الخطاب الديني حكراً على الدولة تحركاً كيما تشاء، وبحسب ما تتبنى من أيديولوجيات، فكان هناك «دين اشتراكي»، و«ثان لبرالي»، و«ثالث وهابي»... الخ، حسب توجهات النظام السياسية، وحسب صراعاته مع غيره من النظم الحاكمة.

لكن الأمر تغير بدرجة كبيرة منذ سبعينيات القرن الماضي مع تصاعد المد الإسلامي وبداية ظهور «إسلام الجماعات الجديدة»، فلم تعد الدولة هي مصدر التوجيه الديني الوحيد، بل ظهرت جماعات وفتايات عديدة ناوأتها، وعملت على استقطاب جماهير جديدة، ونشر توجهاتها الإسلامية المختلفة. ولم يقف الأمر عند مواجهة الدولة فقط، بل تعداه إلى الدعوة إلى خطابيات دينية جديدة لا تأثير عداها، مثلما هو الحال مع الجماعات الإسلامية الأخرى. كما ظهر العديد من الفضائيات عبر الدولية مثل قنوات: «اقرأ»، و«المجد»، و«الرسالة» و«الفجر»، وهي قنوات خرجت من النطاق الإقليمي إلى النطاق الكوني بما يستدعي إنتاج خطاب إسلامي بتوجهات جديدة، بل قادة جدد. وفي هذا السياق يمكن موضوعة الكتاب الراهن، الذي يتناول الدكتور يوسف القرضاوي بوصفه أحد أبرز الذين تضافروا مع وسائل الإعلام الحديثة، وعلى رأسها القنوات الفضائية ممثلة في قناة «الجزيرة». ويحاول الكتاب التوقف أمام ظاهرة القرضاوي الذي امتدت تأثيراته خارج العالم العربي، مُحدثاً فعلاً كونياً غير مسبوق في مجال الخطاب الإسلامي. يشار إلى أن الدراسات التي يضمها الكتاب تنتمي إلى تخصصات عديدة تؤكد أهمية الرؤية الشمولية في تناول الموضوعات الفكرية والأيدولوجية من أجل قراءة عميقة وصحيحة لها. فأصحابها ينطلقون من خلفيات علمية شملت تخصصات في الفلسفة العربية، والدراسات الإسلامية، وعلوم السياسة، وعلم الاجتماع. كما أن لبعضهم

انتماءات عقائدية من مسلمين وغير مسلمين. وبرغم ما أضافه هذا التنوع من شمولية على الكتاب، فإنه أقداه العمق المطلوب، وبشكل خاص ما يرتبط بظاهرة «المفتي الكوني» التي تمثل جوهر الكتاب.

تأثير الإعلام في إنتاج الخطاب الإسلامي

على الرغم من كون الكتاب يتناول القرضاوي بوصفه عالماً كونياً معاصراً استفاد من قدرة وسائل الإعلام الحديثة على طرح خطابه الإسلامي، فإنه لم يكشف بدرجة كافية عن العلاقة الحقيقية بينهما. ففي ظل تعدد تفسيرات الكتاب يمكن أن يستنتج بعضهم أن القرضاوي كان على درجة كبيرة من الوعي بأهمية وسائل الإعلام الجديدة، الأمر الذي جعله يهتم بها، ويتعامل معها بحرفية كبيرة مكنته من توصيل آرائه إلى الملايين من المتابعين، ليس في المنطقة العربية فقط، ولكن إلى أغلب شعوب الأرض الإسلامية وغيرها. فهو شيخ كوني بامتياز، استفاد من آليات العصر لتحقيق أهدافه الموجهة إلى الأمة الإسلامية. كما يمكن أن يخلص بعضهم الآخر إلى أن وسائل الإعلام بقدرتها الهائلة على الانتشار ساعدت بدرجة أو بأخرى على ترويج القرضاوي خطاباً إسلامياً جديداً يتوافق مع متطلبات العولمة؛ إذ تتدخل درجة انتشار الخطاب في إعادة ترتيب أفكاره وتوجهاته بما يتوافق مع التوسع الجديد. فكما يقدم القرضاوي خطابه الإسلامي، فإنه يعيد صياغته بطريقة تتوافق مع اتساع جمهوره، وطبيعة استقباله، ومناقشة الخطابات الإسلامية الأخرى له.

يقدم الكتاب هذين التفسيرين بدرجة كبيرة من الحسم، ففي أحيان تشعر بالقرضاوي «المفتي الكوني» بوصفه من يحدد طبيعة الخطاب الديني الذي يبته عبر وسائل الإعلام التي يتعامل معها، سواء كانت «تلفزيون قطر»، أو قناة «الجزيرة»، أو عبر موقعه على «الإنترنت»، أو موقع «إسلام أونلاين» الشهير. وفي أحيان أخرى نشعر بأن وسائل الإعلام الجديدة لعبت دوراً كبيراً في التحولات المختلفة الخاصة بخطابه وانتهاجه لغة بسيطة تتوافق مع مشاهدية، وتأكده المتواصل له «الوسطية» كسمة مميزة يحقق من خلالها قبولاً إعلامياً كونياً.

وبرغم ما سبق، فإن القرضاوي كمنهج عولمي أسهم بشكل واضح في إنتاج خطاب إسلامي جديد ومقصود موجه إلى الأمة الإسلامية، كما أنه، وتحت تأثير وسائل الإعلام والمنافسة مع غيره من علماء الدين والاتجاهات والمواقف المختلفة، طوَّق هذا الخطاب لكي يلائم متطلبات هذه الوسائل وطبيعة انتشارها غير المسبوق. وهي مسألة أدت إلى انتشاره كرجل دين مستقل بعيداً عن أي مؤسسة دينية، سواء الأزهر أو غيره، وبعيداً عن أي تنظيمات دينية مثل حركة «الإخوان المسلمين». وبرغم تلك الاستقلالية، فإنه وقع أسيراً لعالم الفضائيات و«الإنترنت» برغم حرصه الدائم على التواصل مع المسلمين في الواقع الفعلي من خلال المؤتمرات وصالدة الجمعة وغيرها من المناسبات الدينية.

فالوظيفة التي يؤكدها القرضاوي هي دعوة الأمة كلها من أجل نشر العقيدة، وتوطيد أركانها بين المسلمين. وهذه مهمة وجدت أوسع تأثيراتها عبر برنامج «الشرعية والحياة» الذي بدأ أولى حلقاته عبر قناة «الجزيرة» يوم 3 نوفمبر/ تشرين الثاني 1996، واختلف في توجهاته عن برنامج «هدى إلى الإسلام» الذي ارتبط بـ«تلفزيون دولة قطر» منذ عام 1970. فالمسافة بين قناة «الجزيرة» و«التلفزيون القطري» هي المسافة بين المحلي والعولمي، وذلك لم يقب عن ذكاء الشيخ الذي جعل «الوسطية» عنواناً توأله مع المشاهدين. وركز على ما يتعلق بممارسات حياتهم اليومية، بلغة بسيطة غير مقعدة يقبلها عامة الناس بسهولة ويسر. ولنا هنا أن تخيل حجم التأثير الذي يمكن أن يُحدثه برنامج ديني

يشاهده ملايين البشر حول العالم، وبشكل خاص بين المسلمين. لقد جاءت عولمة القرضاوي من اتساعه وامتداده الكوني الذي شمل أوروبا وأمريكا الشمالية وغيرها من بقاع الأرض؛ فهو تجسيد حي لتلاقي الأفكار مع السياقات العولمية الجديدة من إذاعات وقنوات محلية وفضائية، ومؤسسات دولية ومؤتمرات، ودور نشر مع الزخم الإسلامي المعاصر بجانبه الإيجابي والسلبي على السواء، وبشكل خاص بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول 2001.

تحرره من المؤسسات والتنظيمات

يوجد فرق واضح من حيث التأثير بين داعية يستخدم وسائل الإعلام الحديثة من أجل الدعوة الإسلامية وآخر يستقطب حشوداً قليلة العدد وتقتصر دعوته على المساجد. فالأول يمتلك سلطة تأثير أكبر من الثاني تعدى في أحيان كثيرة القضايا الدينية لتشمل شؤون الحياة كافة من سياسة واقتصاد واجتماع. وأمامنا العديد من النماذج التي أكسبها الإعلام سلطات هائلة، بحيث أصبحت تمثل مؤسسات معنوية قائمة بذاتها، مثل عمرو خالد، وسلمان العودة، وعمر عبدالكافي، والقرضاوي.

وتتمثل سلطة القرضاوي مسألة محورية في الكتاب تكاد تشمل معظم دراساته، برغم عدم تناولها بشكل مباشر إلا في دراسة واحدة عاينته بوصفه «سلطة مرجعية»، وتحتل هذا القضية اهتماماً كبيراً في ضوء العيز الضخم الذي يحتله الإسلام وما يرتبط به كونياً، إضافة إلى اتساع دائرة المواجهات بين العالم الإسلامي والغرب. ويمكن الوقوف على مجموعة من الجوانب منحتة سلطة كبيرة، سواء على المستوى الإقليمي، أو المستوى الكوني.

على المستوى الشخصي يأتي تحرره من الانتماء إلى أي مؤسسة رسمية أو غير رسمية بوصفه عاملاً مهماً في إكسابه مجالاً واسعاً للحركة بعيداً عن الشروط والقيود. وفي هذا السياق، فإن رفض القرضاوي قبول منصب المرشد العام لـ «الإخوان المسلمين» مرتين (عامي 1976 و2006)، بسبب تفضيله أن يكون مُوجهاً عاماً للمسلمين وليس للإخوان المسلمين فقط يكشف عن رغبته الباكورة في عدم الانضمام تحت تنظيم يعينه يقيد حركته. والتطلع إلى المحافظة على استقلاله استمر مع الشيخ منذ هاجر إلى قطر عام 1961، ونما بشكل مستمر أوصله إلى إكساب سلطته طابعاً كونياً.

ويمكن تحليل هذا الرقص في ضوء أمرين، أولهما طموح القرضاوي الشخصي بغض النظر عن كونه رجل دين، وثانيهما رئاسته العديد من المؤسسات الكونية التي اضطلع بإنشائها مثل «المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث»، الذي أسس في أيرلندا في مارس/ آذار 1997، و«الاتحاد العالمي للعلماء المسلمين» الذي أنشئ في لندن في يوليو/ تموز 2004. وبعد الأخير مؤسسة مستقلة عن تأثيرات الدول العربية والإسلامية وتدخلاتها، أو يمثل «مرجعية دينية» للامة الإسلامية بعيداً عن أي «تأثيرات حكومية رسمية»، وفق الصطلح الشعبي الذي يؤثره القرضاوي. ويتعرض الكتاب إلى كيفية فرض الظروف الإقليمية والكونية التي واجهها الإسلام، وبشكل خاص بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، متغيرات جديدة على الواقع الإسلامي نقلته من المحلية والإقليمية إلى الكونية. وهذه التطورات دفعت بالقرضاوي إلى الاشتباك مع نوعية جديدة من القضايا أقرب إلى المواجهات السياسية مع الغرب، مثل قضية الحجاب في فرنسا، والرسوم الكاريكاتورية الدنماركية، والعمليات الاستشهادية في فلسطين، بل إنه دخل في صراعات عديدة مع بعض الحكومات العربية، بما في ذلك مصر والسلطة الفلسطينية، وذلك أمرٌ منحه مساندة جماهيرية واسعة في الدول العربية.

الكتاب: **Islamism : contested perspectives on political Islam**



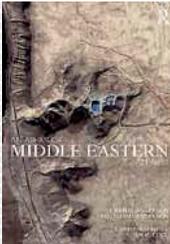
(الإسلاموية: وجهات نظر متصارعة حول الإسلام السياسي)
الناشر: (2010) (Stanford University Press)
إعداد: Richard C. Martin and Abbas Barzegar
يناقش تعريفات للمصطلحات المتداولة في وسائل الإعلام والمراكز البحثية الغربية حول الإسلام السياسي مثل «الإسلاموية» (Islamism)، وغيره من المصطلحات المرتبطة بالعالم والمجتمع الإسلاميين. يحتوي الكتاب على 12 مقالاً كتبها مؤلفون مسلمون وغير مسلمين، بينها مقالان رئيسيان أحدهما لدونالد إميرسون يدافع فيه عن استخدام مصطلح «الإسلاموية»، وآخر لدانيل فارينكو ينتقد فيه استخدام هذا المصطلح لما ارتبط به من أعمال عنف وارهاب.

الكتاب: **فرنسا والمأساة الفلسطينية: دراسة تاريخية 1914-1922**

المؤلف: فيليب بريفيوست

الناشر: دار النقاش-بيروت (2009)

ترجمة: سمارة شاتيللا
بريطانيا ليست وحدها المسؤولة عما جرى في فلسطين: في هذا الكتاب يُظهر المؤلف دور فرنسا، خاصة بين عامي 1914 و1922، ويبيّن ما قام به كل من الدبلوماسي «بيكو» والسياسي «كليمنصو» من أعمال أساءت إلى العرب عامة، وإلى الفلسطينيين خاصة. ويكشف عن حقائق مذهلة عن حقبة مهمة في تاريخ بلاد الشام.



الكتاب: **An atlas of Middle Eastern affairs**

(أطلس شؤون الشرق الأوسط)

إعداد: Ewan W. Anderson and Liam D. Anderson

الناشر: (2009) (Routledge)

يوفر هذا الأطلس مستخدمه معلومات وتحليلات وخلفيات مدعّمة بصور وخرائط وإحصاءات عن أهم شؤون الشرق الأوسط الجيو-سياسية. ويركّز الأطلس على موضوعات ثلاثة هي: صناعة النفط، ونقص المياه، وأهم المشكلات الحدودية في الشرق الأوسط.

الكتاب: **الطاقة النووية في الخليج**

الناشر: «مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية» - أبوظبي (2009)
يحتوي الكتاب أوراق مؤتمر الطاقة النووية في الخليج الذي عقد في «مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية» العام الماضي

الكتاب: **ضمير ليبرالي**

(The Conscience of a Liberal)

تأليف: بول كروغمان

ترجمة وتحقيق: محمد محمود التوبة

الناشر: مكتبة العبيكان (يناير 2010)

ترجمة عربية لمؤلف أستاذ الاقتصاد الأمريكي بول كروغمان، الذي نُشر عام 2008. وفيه يقدم تصورات له للكيفية المؤدية إلى ردم الفجوة الأخذة في الاتساع بين الفقراء والمترفين في الولايات المتحدة. ويطوف في سيرة الاقتصاد السياسي وتقلباته على مدى أكثر من 80 عاماً، ويشرح كيف أن دعاة اللامساواة استغلوا أوضاع الانقسام الثقافي والعرفي لمصلحة توجهاتهم الاقتصادية. ويبيّن بأن أوان إجراء تعديلات إصلاحية كبيرة قد حان.

الكتاب: **التشيع السياسي والتشيع الديني**

المؤلف: أحمد الكاتب

الناشر: مؤسسة الانتشار العربي (2009)

أثار مؤلفه العراقي جدلاً كبيراً في أوساط المؤمنين بمبدأ «ولاية الفقيه». ويشكل الكتاب مراجعة ذاتية لهذا المبدأ الذي يقول الكاتب إنه كان مؤمناً به من قبل، إلا أنه اكتشف مصداقة في أثناء بحثه في مراجع قديمة وجود أقوال لعلماء الشيعة تؤكد عدم «وجود أدلة علمية تاريخية قاطعة على ولادة الإمام الثاني عشر محمد بن الحسن العسكري، وأن اعتقاد ولادته ووجوده يقوم على افتراضات كلامية عقلية».

الكتاب: **سنوات التجديد**

(Years of Renewal)

المؤلف: هنري كيسنجر

الناشر: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث «كلمة» (2010)

ترجمة: هشام الدجاني

الجزء الثالث والأخير من مذكرات وزير خارجية الولايات المتحدة الأسبق هنري كيسنجر، وهي ذات أهمية سياسية واستراتيجية، وطل انتظار ترجمتها إلى اللغة العربية بعد صدورها عام 1999 باللغة الإنجليزية. في هذا الكتاب يبيّن كيسنجر جوانب من سياسة الولايات المتحدة تجاه الشرق الأوسط والصين، ويلقي مزيداً من الضوء حول أسلوبه الخاص في إدارة السياسة الخارجية.

تنافسية فيما بينهم. فما قد يكسبه القرضاي جماهيرياً اليوم قد يعني خسارة لداعية آخر غداً، والعكس أيضاً صحيح. فالسلطة المكتسبة من قبل زعماء الإفتاء الجدد ترتبط بوسائل الإعلام والمساحات اليومية التي يحصلون عليها من خلال إرضاء أذواق المشاهدين، وتلبية احتياجاتهم ورغباتهم المختلفة، إضافة إلى نوعية القضايا العديدة التي يتناولونها، وهي قضايا تحتاج إلى المزيد من الدراسات الأكثر عمقاً وتحليلاً.

وربما خارجها. كما لعبت مداخله التحليلية والأبيولوجية دوراً كبيراً في توسيع سلطته في العالم الإسلامي، حيث التناول الواقعي للقضايا الدينية المختلفة، وروية القضايا كافة على أنها ذات علاقة بالمسلمين مثل القضايا الدينية والسياسية والأسرية والاجتماعية والاقتصادية والتعليمية والنشئة وواقع المرأة، والتوجه نحو المسلمين في أنحاء العالم كافة كونياً لا يتعارض مع التوجه المحلي، ثم التركيز على الطريق الوسط في التعامل مع هذه القضايا المختلفة.

يمكن القول إن واقع دعاة اليوم، بمن فيهم القرضاي، لم يعد مثل نظرائهم بالأمس. فحجم الانتشار الواسع يكسب الداعية دعم الملايين، في ظل حالة

* كاتب مصري مقيم في الإمارات

انسجاماً مع أسلوبها في عرض الكتب، وجّهت «أفاق المستقبل» إلى المحرّرين أسئلة مستوحاة من القراءة النقدية السابقة، المحررة غراف (باحثة مساعدة لمدير «مركز الدراسات الشرقية المعاصرة»، في برلين، وأنها درست للدكتوراه عام 2008 تحت عنوان «إنتاج واستخدام الفتوى في عصر وسائل الإعلام الإلكترونية بالتركيز على أعمال يوسف القرضاي»، عقبّت على المادختين فيما يلي:

■ على الرغم من انطلاق الكتاب من عنوان محدد يتعلّق بظاهرة المفتي الكوني فإنه تحول في كثير من مادته إلى مجرد سرد لحياة القرضاي، بمعنى آخر فإن النقص في مسألة علاقة هذا العالم بالإعلام والآليات التي استطاع بها أن ينتقل من المحلية إلى العالمية لم تبرز في الكتاب بشكل جيد، إضافة إلى ذلك لم يتضح بشكل كبير هل يعود انتشاره إلى وسائل الإعلام الجديدة أم بسبب وسطيته أم بسبب توسعه في أوروبا وأمريكا؟

من خلال وجهة نظري فإن العنوان لا يفسر الكتاب بقدر ما يحاول أن يجذب القارئ لشخصية كونيّة مثل شخصية القرضاي بما يساعد على فهم الصحة الإسلامية التي سوف تستمر بشكل كبير في القرن الحادي والعشرين. ولقد أثارنا أن نطلق عليه لقب «المفتي الكوني» ليس لأن المسلمين جميعاً ينظرون إليه على أنه المفتي الخاص بهم لكن بسبب توفقه إلى أن يكون مفتياً كونياً، وهذا ما يؤسسه من خلال وسائل الإعلام والعديد من المؤسسات التي يرأسها أو يشارك في أنشطتها على مستوى كوني أيضاً. وعبر كل هذه الأنشطة والممارسات لم يعتمد القرضاي على حكومة قطر أو غيرها من الحكومات العربية الأخرى، لكنه اعتمد على نفسه وعلى قناة «الجزيرة» وردود الأفعال الإيجابية التي تلقاها في العالم العربي، ونظيراتها الإيجابية والسلبية منها التي تأتي من الخارج وتمنحه شهرة واسعة على مستوى العالم، وبهذا المعنى فإن القرضاي لا يمكن تناوله على أنه مواطن قطري أو عبر قومي لكنه ظاهرة كونية بامتياز.

وعن علاقة القرضاي ب«الميديا» (الإعلام)، فإنها تمثل أحد مظاهر الكتاب لكنها ليست محور الكتاب الوحيد، كما أن العلاقة بين الخطاب الإسلامي المعاصر والأنماط الجديدة من وسائل الإعلام ليست بمنزلة القلب من الكتاب أيضاً، لكنها تشكل الأفق العام الذي يمكن من خلاله أن نفسر القرضاي كظاهرة كونية.

■ هل اعتمد الكتاب على التحليل التنمّي أو تحليل الخطاب في ضوء السياقات التاريخية المختلفة التي مر بها القرضاي عبر حياته وإنتاجه المتعدد؟ ولماذا لم يتم التركيز على القرضاي في ضوء علاقته بالجزيرة، فقط بما يتوافق مع الهدف من الكتاب وعنوانه بشكل أكثر عمقاً وتحديداً؛ أقصد هنا عبر كل دراسات الكتاب وليس عبر دراسة إيهاب جلال فقط؟

أما عن منهجية الكتاب فيمكن القول بوجود مداخل منهجية عديدة تم استخدامها من قبل المؤلفين المشاركين به. وبشكل رئيسي يرتكز المنهج العام المستخدم على التحليل التنمّي، لكن هناك مداخل منهجية تحليلية أخرى مثل دراستي «مفهوم الوسطية في أعمال يوسف القرضاي» ص 213-238 التي اعتمدت فيها على بعض المقابلات. وبشكل عام لعب سياق إنتاج النصوص دوراً مهماً في دراسات الكتاب كلها، فعلى سبيل المثال فإن إيهاب جلال اعتمد في دراسته «يوسف القرضاي والتلفزيون الإسلامي الجديد» ص 149-180 على تحليل البرامج في سياق إنتاجها من قبل «لفزيون قطر» وقناة «الجزيرة».